دار القاسم

صنائع المعروف تقي مصارع السوء

صبري سلامة شاهين

الرياض: ١١٤٤٢ ص.ب: ٦٣٧٣ ت: ٤٠٩٢٠٠٠ ف: ٤٠٣٣١٥٠
فروعنا - جدة ت: ٦٠٢٠٠٠٠ بريدة ت: ٣٢٦٢٨٨٨ الدمام ت: ٨٤٣١٠٠٠
www.dar-alqassem.com

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه الأطهار، أما بعد:

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]

وقال رسول الله ﷺ: «من دلّ على خير فله مثل أجر فاعله» [مسلم: ١٨٩٣] وقال أيضاً: «إن الله إذا أنعم على عبد نعمة يحب أن يرى أثر نعمته على عبده» [صحيح الجامع: ١٧١٢].

وقال أيضاً: «إن الله كريم يحب الكرماء، جواد يحب الجودة، يحب معالي الأخلاق، ويكره سفسافها» [صحيح الجامع: ١٨٠٠].

وصدق الشاعر القائل:

إن لم تكونوا مثلهم فتشبهوا
إن التشبه بالكرام فلاح

انطلاقاً من ذلك أحببت أن أضرب بسهم في بيان فضائل صنائع المعروف، فإن لم أشارك القوم في صنائعهم ولم ألحق بركبهم، فلا أقلّ من أن أدلي بدلو أو أدل على مَعْلَم، ففضل الله عظيم وأجره واسع عميم، ويكفيني قول رسوله الكريم ﷺ: «الدالّ على الخير كفاعله» [صحيح الجامع: ٣٣٩٩].

قال ابن عبد ربه: أشرف ملابس الدنيا وأزين حللها وأجلبها لحمد، وأدفعها لذمّ، وأسترها لعيب كرمُ طبيعة يتحلى بها السّمح السّريّ والجواد السّخي، ولو لم يكن في الكرم إلا أنه صفة من صفات الله ـ تعالى ـ تسمّى بها، فهو الكريم ـ عز وجل ـ ومن كان كريماً من خلقه فقد تسمى باسمه واحتذى على صفته. أهـ.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ

الرَّازِقِينَ (٣٩) ﴾ [سبأ: ٣٩].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل، وفي الآخرة بالجزاء والثواب. وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله ـ عز وجل: أنفق أُنفق عليك» [البخاري: ٤٦٨٤، ومسلم، ٩٩٣].

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً» [البخاري: ١٤٤٢، ومسلم، ١٠١٠].

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبه كما يربي أحدكم فلوّه، حتى تكون مثل الجبل» [البخاري: ١٤١٠، ومسلم: ١٠١٤].

ونحن ـ المسلمين ـ أحوج ما نكون إلى من يأخذ بأيدينا إلى عمل الصالحات ويبصرنا بمواطن الخيرات، عسى أن نظفر بالحسنات وتُكفِّر عنا السيئات.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢) ﴾ [آل عمران: ٩٢].

وقال رسول الله ﷺ: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء والآفات والهلكات: وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة» [صحيح الجامع: ٣٧٩٥] وفي رواية: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء، والصدقة خفياً تطفئ غضب الرب، وصلة الرحم زيادة في العمر، وكلّ معروف صدقة، وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة، وأهل المنكر في الدنيا هم أهل المنكر في الآخرة» [صحيح الجامع: ٣٧٩٦].

إن عمل المعروف واصطناعه بين الناس ـ كل الناس: مسلمهم وكافرهم ـ لهو من أحب الأعمال إلى الله ـ عز وجل ـ وبه ينال المسلم خيري الدنيا والآخرة، ويقيه الله مصارع السوء ومواقف الخزي والذل والعار، هذا في الدنيا،

أما في الآخرة فيكفيه فخراً واعتزازاً أن يكون من أهل الخير والطاعة والفلاح والفوز والنجاة، فطالما كان أهل المعروف في الدنيا فسوف يكون من أهل المعروف في الآخرة.

وقد قيل: اصنع المعروف إلى كل أحد، فإن كان من أهله فقد وضعته في موضعه، وإن لم يكن من أهله كنت أنت أهله.

قال الشاعر:

ولم أر كالمعروف: أما مذاقه
فحلو وأما وجهه فجميل

قال عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ: في كل شيء سرف إلا في إتيان مكرمة أواصطناع معروف أو إظهار مروءة.

وقد قيل: صاحب المعروف لا يقع، فإذا وقع أصاب متكأً.

وقد قيل: حصاد من يزرع المعروف في الدنيا اغتباط في الآخرة.

وقيل: من يزرع معروفاً حصد خيراً، ومن زرع شراً حصد ندامة.

وقال الشاعر:

من يزرع الخير يحصد ما يُسرُّ به
وزارعُ الشرِّ مكنوسٌ على الرأس

وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أيما مسلم كسا مسلماً ثوباً على عُرْي كساه الله ـ تعالى ـ من خضر الجنّة. وأيما مسلم أطعم مسلماً على جوع أطعمه الله ـ تعالى ـ يوم القيامة من ثمار الجنّة. وأيما مسلم سقى مسلماً على ظمأ سقاه الله ـ تعالى ـ يوم القيامة من الرحيق المختوم» [الترمذي: ٢٤٤٩].

بل أي فخر ومكرمة واعتزاز يوم يدرج المسلم في خير الناس بنص كلام الرسول ﷺ: «خير الناس أنفعهم للناس» [صحيح الجامع: ٣٢٨٩].

وأي شرف يناله المسلم يوم يسعى على الأرملة والمسكين؟

وأي درجة يحظاها فوق درجة المجاهد في سبيل الله أو درجة القائم بالليل والصائم بالنهار عندما يبذل المعروف فها هو خبر الرسول المعصوم بين يديك يدلك على الثواب الجزيل والأجر الجميل حيث قال ﷺ: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو القائم الليل الصائم النهار» [البخاري: ٥٣٥٣، ومسلم: ٢٩٨٢].

وأما إدخال السرور على المسلم أو قضاء الدين عنه أو إطعامه الطعام، فهذا كله يدخل في أفضل الأعمال التي نص عليها رسول الله ﷺ بقوله: «أفضل الأعمال أن تدخل على أخيك المؤمن سروراً أو تقضي عنه ديناً أو تطعمه خبزاً» [صحيح الجامع: ١٠٩٦].

وصاحب هذه الأعمال يعد من أحب عباد الله إليه، وأعماله هذه تعد من أحب الأعمال إلى الله عز وجل، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ بقوله: «أحب الناس إلى الله أنفعهم، وأحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة أو تقضي عنه ديناً أو تطرد عنه جوعاً. ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحبّ إليّ من أن أعتكف في المسجد شهراً، ومن كف غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غيظاً ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه رضاً يوم القيامة، ومن مشى مع أخيه المسلم في حاجته حتى يثبتها له أثبت الله تعالى قدمه يوم تزل الأقدام، وإن سوء الخلق ليفسد العمل كما يفسد الخلّ العسل» [صحيح الجامع: ١٧٦].

وليحرص المسلم على بذل المعروف واصطناعه وأن يفيض بنعم الله التي أنعم بها عليه على عباد الله؛ حتى تثبت له، وتستمر عنده، وينميها له ربه، ويبارك له فيها، وليحذر المسلم من البخل بها ومنعها فإذا منعها منعه الله هذه النعم وحوّلها إلى غيره، ممن يحفظونها ويوفون حقها ـ فإن من حقها أن تبذل لأهلها ومستحقيها ـ لأن الله ـ عز وجل ـ لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه

قال: «إن لله ـ تعالى ـ أقواماً يختصهم بالنعم لمنافع العباد، ويقرها فيهم ما بذلوها، فإذا منعوها نزعها الله منهم، فحوّلها إلى غيرهم» [صحيح الجامع: ٢١٦٤].

وقال ﷺ: «أحب العباد إلى الله تعالى أنفعهم لعياله» [صحيح الجامع: ١٧٢].

قال عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: المعروف أميز زرع وأفضل كنز، ولايتم إلا بثلاث خصال: بتعجيله وتصغيره وستره، فإذا عجل فقد هنأ، وإذا صغر فقد عظم، وإذا ستر فقد تمم.

وقد قيل: ما شيء أفضل من المعروف إلا ثوابه.

وقيل أيضاً: من أسلف المعروف كان ربحه الحمد.

وقيل أيضاً: لا يزهدنك في المعروف كفر من كفره، فإنه يشكرك عليه من لا تصنعه إليه.

وقال ابن المبارك:

يد المعروف غنمٌ حيث كانت
تحمّلها شكورٌ أو كفور
ففي شكر الشكور لها جزاء
وعند الله ما كفر الكفور

وقال زهير:

ومن يجعل المعروف من دون عرضه
بقيه، ومن لا يتّق الشتمَ يُشتم

قيل لسفيان بن عيينة: ما السخاء؟ قال: بر الإخوان والجود بالمال.

وقد قيل: عجبت لمن يشتري المماليك بماله، ولا يشتري الأحرار بمعروفه.

وقال الحسن البصري: لأن أقضي حاجة لأخي أحب إليّ من عبادة سنة.

وقال جعفر الصادق: إن الله خلق خلقاً من رحمته برحمته

لرحمته، وهم الذين يقضون حوائج الناس، فمن استطاع منكم أن يكون منهم فليكن.

وصدق القائل:

مـــلأت يدي مـن الدنيـــا مـــراراً
ومـــا طمع العـــواذل في اقـــتصـــادي
ولا وجـــبت عـليّ زكـــاة مـــال
وهـل تجب الـزكـــاة عـلى الجـــواد

وقال **إبراهيم بن أدهم**: عجباً للرجل اللئيم يبخل بالدنيا على أصدقائه، ويسخى بالجنّة لأعدائه.

وكان أبو القاسم الجنيد لا يمنع قط أحداً سأله شيئاً ويقول: أتخلق بأخلاق رسول الله ﷺ.

وقال **ابن سيرين**: أدركنا الناس وهم يتهادون بالفضة في الأطباق كالفاكهة. وكان له بغل مربوط في دهليزه، فكل من احتاج إلى ركوبه أخذه وركبه من غير استئذان، لما يعلمون من طيب نفسه بذلك.

وكان يحيى بن معاذ يقول: عجبت ممن يبقى معه مال وهو يسمع قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾ [التغابن: ١٧].

وكان عبد العزيز بن عمير يقول: الصلاة توصلك إلى نصف الطريق، والصوم يوصلك إلى باب الملك، والصدقة تدخلك على الملك.

وكان الليث بن سعد يقول: من أخذ مني صدقة أو هدية فحقه عليّ أعظم من حقي عليه، لأنّه قبل مني قرباي إلى الله ـ عز وجل ـ.

وكان سفيان الثوري ـ رحمه الله ـ ينشرح صدره إذا رأى سائلاً على بابه، ويقول: مرحباً بمن جاء يغسل ذنوبي.

وكان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ يقول: نعم السائلون يحملون أزوادنا إلى الآخرة بغير أجرة، حتى يضعوها في الميزان بين يدي الله ـ تعالى ـ.

وكان ـ رحمه الله ـ يقول أيضاً: من المعروف أن ترى المنة لأخيك عليك إذا أخذ منك شيئاً؛ لأنه لولا أخذه منك ما حصل لك الثواب، وأيضاً فإنه خصك بالسؤال ورجا فيك الخير دون غيرك.

وقال أحد العباد: يتزوج أحدكم فلانة بنت فلان بالمال الكثير، ولا يتزوج الحور العين بلقمة أو تمرة أوخرقة، هذا من العجب!

وكان الفضيل بن عياض يقول: نحن لا نعد القرض من المعروف، لأنه صاحبه يطلب المقابلة، وإنما المعروف المسامحة للناس في كل ما يطلبونه منك في الدنيا والآخرة.

وكان مطرف بن عبد الله بن الشِّخِّير يقول: من كان له عندي حاجة فليكتبها في قرطاس ويرسلها إليّ فإني أكره أن أرى ذل المسألة في وجه مسلم.

وورث عبد الرحمن بن الحارث خمسين ألفاً فبعث بها سراً إلى إخوانه، وقال: قد كنت أسأل لهم الجنّة في صلاتي فأبخل عليهم بالدنيا.

وكان ﷺ أكرم الناس ويعطي عطاء لا يعطيه أحد من البشر، جاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع الرجل إلى قومه وقال لهم: يا قوم، أسلموا فإن محمّداً يعطي عطاءً لا يخشى الفقر. [مسلم: ٢٣١٢].

وقال جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ: ما سئل رسول الله ﷺ قط فقال: لا. [مسلم: ٢٣١١].

ولما قفل رسول الله ﷺ من غزوة حنين تبعه الأعراب يسألونه فألجؤوه إلى شجرة، فخطفت رداءه وهو على راحلته، فقال: **«ردوا عليّ ردائي، أتخشون عليّ البخل؟ فوالله لو كان لي عدد هذه العضاه نعماً لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا جباناً ولا كذوباً»** [البخاري: ٢٨٢١].

وكان ﷺ يؤثر على نفسه، فيعطي العطاء ويمضي عليه الشهر والشهران لا يوقد في بيته نار. [البخاري: ٢٥٦٧، ومسلم: ٢٩٧٢].

وقد أهدت امرأة إلى النبي ﷺ شملة منسوجة، فقالت: يا رسول الله أكسوك هذه. فأخذها النبي ﷺ محتاجاً إليها فلبسها، فرآها عليه رجل من الصحابة، فقال: يا رسول الله ما أحسن هذه فاكسنيها. فقال: «نعم».

فلما قام النبي ﷺ لامه الصحابة فقالوا: ما أحسنت حين رأيت النبي ﷺ أخذها محتاجاً إليها ثم سألته إياها، وقد عرفت أنّه لا يُسأل شيئاً فيمنعه! فقال: رجوت بركتها حين لبسها النبي ﷺ لعلي أكفن فيها. [البخاري: ١٢٧٧].

قال ابن عثيمين ـ رحمه الله ـ: وكان كرمه ﷺ كرماً في محله، ينفق المال لله وبالله: إما لفقير أو محتاج أو في سبيل الله أو تأليفاً على الإسلام أو تشريعاً للأمة. أهـ.

فهذا جانب مضيء من جوانب حياة الرسول ﷺ، وهذه صورة مشرقة من صور كرمه الواسع وجوده العريض وعطائه الممتد وضعتها هنا عسى أن تكون حادياً يحدو، ومثالاً يحتذى، ونموذجاً يقتدى به فيرغب الأغنياء والأثرياء وأصحاب الأموال فيما فيه نفع لهم ولغيرهم سواء في الدنيا والآخرة.

عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: قال: قال رسول الله ﷺ: «حوسب رجل ممن كان قبلكم، فلم يوجد له من الخير شيء إلا أنه كان رجلاً موسراً، فكان يخالط الناس، وكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر، فقال الله ـ تعالى ـ: «نحن أحق بذلك منه. تجاوزوا عنه» [مسلم: ١٥٦١].

وعن بريدة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة قبل أن يحلّ الدين، فإذا حلّ الدين فأنظره فله بكل يوم مثلاه صدقة» [صحيح الجامع: ٣١٥٤].

وقال عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ثلاثة لا أكافيهم: رجل وسّع لي في المجلس لا أقدر أن أكافيه ولو خرجت من جميع ما أملك. والثاني: من اغبرت قدماه بالاختلاف إليّ فإني لا أقدر أن أكافيه ولو قطرت له من دمي.

والثالث لا أقدر أن أكافيه حتى يكافيه رب العالمين عني: من أنزل بي الحاجة، لم يجد لها موضعاً غيري».

وعن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة» [البخاري: ١٤١٣، ومسلم: ١٠١٦]. وفي رواية لمسلم: «من استطاع أن يستتر من النار ولو بشق تمرة فليفعل».

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ قال: «اليد العليا خير من اليد السفلى، فاليد العليا هي المنفقة، والسفلى هي السائلة» [البخاري: ١٤٢٩، ومسلم: ١٠٣٣].

وكان النبي ﷺ أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس. [البخاري: ٢٨٢٠، ومسلم: ٢٣٠٧].

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كان النبي ﷺ أجود الناس، وأجود ما يكون في رمضان ،حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كلّ ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة. [البخاري: ٦، ومسلم: ٢٣٠٨].

وعن عبد الله بن بسر قال: كان للنبي ﷺ قصعة يقال لها: الغراء، يحملها أربعة رجال. [صحيح الجامع: ٤٨٣٣].

وما هذه الأيام إلا معارةٌ
فما اسطعت من معروفها فتزوّد
فإنك لا تدري بأية بلدة
تموت ولا ما يحدث الله في غد

أسأل الله ـ عزّ وجلّ ـ أن يستعملني وإياكم لصنائع المعروف، ويستخدمنا في أحب الأعمال إليه، وينزلنا أشرف المنازل في الدنيا والآخرة، إنّه ولي ذلك والقادر عليه وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

دار القاسم تقدم برنامج القراءة بالمراسلة: يصلك شهرياً ٤كتيبات + ٤كتيبات جيب + ٤مطويات بإشتراك سنوي ١٧٥ ريال فقط

حقوق الطبع والنشر محفوظة